



Preaching pauses from Surat Al-Baqarah: A study in thematic interpretation

Muhsin Abdulsalam Mohammed Altayb*

Department of Interpretation and Hadith, Faculty of Da'wah and Fundamentals of Religion, Al-Asmariya
Islamic University, Zliten, Libya
m.altaib@asmariya.edu.ly

وقفات دعوية من سورة البقرة "دراسة في التفسير الموضوعي"

د. محسن عبد السلام التائب*

قسم التفسير والحديث، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، زليتن، ليبيا

تاريخ النشر: 2025-10-15

تاريخ القبول: 2025-10-07

تاريخ الاستلام: 2025-09-10

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الإشارات والإحياءات الدعوية في سورة البقرة، وذلك بالتركيز على استنباط المعاني المتعلقة بقضايا الدعوة، ومبناه على التأمل الشخصي، والتدبر في آيات السورة، مع الاستعانة أحيانا ببعض المصادر والمراجع ذات العلاقة، واتبعت فيه المنهج الوصفي التحليلي والاستنباطي في بعض الأحيان. ومما استنتج من هذه الدراسة أن سورة البقرة تشمل الكثير من الإحياءات الدعوية والرسائل التربوية التي يمكن استنباطها، وتعد زادا زائدا للدعاة والمصلحين والمربين، ومصدرا ثريا للمعرفة والحكمة، وأن المعرفة الجيدة والدقيقة بالواقع من أهم أسس النجاح، ومن أبرز خطوات التخطيط السليم، وأن أسلوب القصص من أهم أساليب الخطاب تأثيرا وإقناعا، وأن تذكير الناس بفضائل الله ومننه من أنفع ما يلين القلوب القاسية، ويحرك العقول الكاسلة، ويدفعها إلى الإقرار والتسليم، وأن المنهج القرآني في الدعوة والإصلاح يمتاز بالشمولية والتكامل والتوازن، وأن تفسير "في ظلال القرآن" من أفضل ما يمثل المنهج الدعوي في التفسير، ويعد نموذجا فريدا في استنباط المعاني والأفكار الدعوية التي لم ينتبه لها كثير من المفسرين.

الكلمات الدالة: الدعوة، الداعية، الدعوية، المنهج، التربية.

Abstract:

This research aims to highlight the preaching references and connotations in Surat Al-Baqarah, focusing on deducing meanings related to preaching issues. It is based on personal contemplation and reflection on the verses of the surah, with occasional assistance from relevant sources and references. The research followed a descriptive, analytical, and sometimes deductive approach. From what was concluded from this study, Surat Al-Baqarah includes many preaching suggestions and educational messages that can be derived, and it is a rich provision for preachers, reformers and educators, and a rich source of knowledge and wisdom. It is also concluded that a

good and accurate knowledge of reality is one of the most important foundations for success and one of the most prominent steps in sound planning. It is also concluded that the narrative style is one of the most influential and persuasive styles of speech. It is also concluded that reminding people of the virtues and blessings of Allah is one of the most beneficial ways to soften hard hearts, motivate lazy minds and push them towards acknowledgment and submission. It is also concluded that the Qur'anic approach to preaching and reform is characterised by comprehensiveness, integration and balance. It is also concluded that the interpretation of "In the Shade of the Qur'an" is one of the best representations of the preaching approach to interpretation and is a unique model for deducing preaching meanings and ideas that many interpreters have not paid attention to.

Keywords: Call, preacher, preaching, method, education.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبه أستعين. أما بعد،،،

فإن أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع مصطلح "المنهج الدعوي في التفسير" هو ذلك الأسلوب أو السبيل أو الاتجاه الذي يسلكه مفسر ما في التأمل في آيات الكتاب العزيز، والنظر والتدبر فيما توحى به، والتمعن في دلالاتها، والانتباه إلى ما تشير إليه، وما يمكن أن يستنبط منها من حكم وأساليب وطرائق يستفيد منها الداعية في دعوته؛ إذ ترسم له ملامح الطريق الذي ينبغي أن يسلكه، وتدله على معالمه التي تهديه إلى بلوغ غايته، والظفر بطلبته.

كما تزود الداعية برصيد من تجارب الدعاة والمصلحين السابقين، فيدرك أسباب النجاح وعوامله فيأخذ بها، ويعي أسباب الفشل والزلل فيتجنبها، ويتعرف على سنن الله في نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، كل ذلك يدركه المفسر ويستوحيه من النص القرآني مسترشداً في ذلك بالأدوات المهمة التي لا يستغني عنها متدبر لكتاب الله من لغة وبلاغة وأسباب نزول... وغيرها من علوم القرآن وأصول التفسير.

وفي هذه الأحرف تتبّع لبعض الإشارات والإحياءات الدعوية يربطها شيان اثنان: أنها في قضايا الدعوة وما يتعلق بها، وأنها مستوحاة من سورة البقرة، معتمداً فيها على التدبر والتأمل في آياتها المباركة، مسترشداً في ذلك بما سطره جمهرة من المفسرين الذين غنوا ببيان هذا الجانب من هدايات القرآن الوفيرة، وعطاياه المتنوعة.

وإذا كان لنا أن نقسّم التفاسير حسب مشاربها واتجاهاتها وسماتها، وما يغلب عليها-وهذا ما سار عليه أغلب الكاتبيين في مناهج المفسرين قديماً وحديثاً، حيث غلب على كل مفسر صناعته، واصطبغ كل تفسير بصبغة مؤلفه- فيمكن أن نعدّ من أشهر من اهتم بالجانب الدعوي الهدائي "تفسير المنار" للمرحوم محمد رشيد رضا، وتفسير "في ظلال القرآن" للشهيد سيد قطب وهما تفسيران متقاربان زماناً ومكاناً واهتماماً، مما يشير -ربما- إلى تأثير اللاحق منهما بالسابق، دعوى لسنا في وراد البرهنة عليها الآن.

مشكلة البحث:

وتتمثل مشكلة البحث في الجواب عن السؤال التالي: ما هي الإشارات والإحياءات الدعوية التي يمكن استنباطها من آيات سورة البقرة؟

أهداف البحث: إبراز الجانب الدعوي في سورة البقرة، واستنباط المعاني المتعلقة به، والوقوف عند إشاراته وتلميحاته، بغية تعميق الفهم، وتصحيح المسار، وإسهاماً في تأصيل علم الدعوة، وإحياء لدور القرآن في التنوير والتنقيف والتجديد وصولاً إلى نشر أنوار الإسلام في العالمين.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في إسهامه في تأصيل علم الدعوة، وتحقيق مفاهيمه، وتحديث نظرياته، وتحليل مسائله وتجديد وسائله، وما يتعلق بذلك من تعقيد وتقنين، وربط كل ذلك بتوجيهات القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

معاني القرآن لا تحد، وعطاياه تفوق الحصر والعد، لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي فوائده، ولا تنفذ ذخائره، ولا تقنى جواهره، ولذا فإن كل متدبر في آياته ومتأمل في معانيه يعمه من فيض نواله، ويغدق عليه من سحائب أفضاله، بحسب جهده وحاله، فتسيل أودية بقدرها، وتعي أوعية وفق كدها وجهدها.

ولذا فإن أمثال هذه الوقفات القائمة على التدبر الشخصي والتفكير الذاتي في آيات الكتاب الكريم لا يطلب لها كثرة مصادر، ولا أصول ترجع إليها من أبحاث ودراسات سابقة؛ إذ المعاني متجددة، والأنظار متعددة، ولا حجر في ذلك على عقل اقتنص أو ذهن اقتبس.

ولكن لأبأس من ذكر بعض ما شابه هذا البحث في موضوعه فقد كتبت أبحاث بعناوين بصائر دعوية أو وقفات دعوية في سور مثل يوسف وإبراهيم ونوح، أو عن قصص بعض الأنبياء في بعض السور، لكن لم تخص سورة البقرة-فيما أعلم- بدراسة دعوية عدا رسالة دكتوراه في جامعة العلوم الإسلامية العالمية بعمان الأردن بعنوان: (آيات الدعوة في سورتي البقرة وآل عمران: دراسة تحليلية موضوعية) للصادق العزيز زليم خان سيد علي يونس، وقد نوقشت سنة: 2016م، ومن خلال ما جاء في ملخصها تبين أنها تناولت دعوة المشركين وأهل الكتاب والمؤمنين، والأساليب التي استعملت معهم.

ودراسة أخرى بعنوان: (آيات البشرى في سورة البقرة وأهميتها للدعاة-دراسة دعوية) للباحث أحمد عبيد، نشرت في مجلة جامعة الملك عبد العزيز - الآداب والعلوم الإنسانية سنة 2019م، وهي خاصة بآيات البشرى وهي أربع آيات فقط، وهاتان الدراستان تختلفان عما ورد في هذا البحث.

وقد بدا للباحث تناول هذا الموضوع عبر المباحث التالية:

المبحث الأول: تمهيد عن السورة وبه ثلاثة مطالب، المبحث الثاني: الهداية والتكليف بها، وبه مطلبان، المبحث الثالث: أسس ومنطلقات، وبه أربعة مطالب، المبحث الرابع أساليب ووسائل، وبه أربعة مطالب.

وتتدرج هذه الدراسة ضمن إحدى صور التفسير الموضوعي، وهي تتبع موضوع واحد في سورة من السور. والله وحده المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يخلصه بمئته وكرمه- من حظوظ النفس ومن شوائب التقصير والنقص.

المبحث الأول: تمهيد عام عن السورة

المطلب الأول: لمحة عامة عن السورة:

سورة البقرة من أوائل ما نزل من القرآن بالمدينة المنورة، وهي أطول وأعظم سورة فيه، فصلت فيها الأحكام، وضربت الأمثال، وأقيمت الحجج، ولم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه؛ إذ ورد أن فيها خمسمائة حكم، وفيها أعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي⁽¹⁾، وفيها أطول آية وهي آية الدين، وفيها آخر آية نزلت وهي قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله...﴾ [البقرة: 280].

وذكر الألوسي أن فيها ألف أمر وألف نهى وألف خبر، وفيها خمسة عشر مثلاً؛ ولهذا أقام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ثمانين سنين على تعلمها⁽²⁾.

وورد تسميها بسنام القرآن⁽³⁾، وفسطاط القرآن⁽⁴⁾، وذلك لجمعها كثير من الأحكام، وسميت كذلك هي وآل عمران بالزهرابين في حديث "اقرأوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرأوا الزهرابين: البقرة وآل

(1) ينظر: الإتيان، السيوطي، 141/4.

(2) ينظر: تفسير الألوسي، الألوسي، 101/1.

(3) مسند أحمد برقم: (20300).

(4) سنن الدارمي، ومن كتاب فضائل القرآن، باب في فضل سورة البقرة، حديث رقم: (3376).

عمران؛ فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلها⁽¹⁾.
ومما ورد في فضلها " لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة"⁽²⁾،
وورد كذلك: " اقرءوا البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة"⁽³⁾.
وبالنظر إلى اعتبارها سنام القرآن، وسنام الشيء ذروته وأعلاه، وعنوان الشيء ودليله فكأنها دليل القرآن
وعنوانه، وباعتبارها فسطاط القرآن، والفسطاط هو المدينة الجامعة التي تستوعب كل ما فيها، فهي بمثابة
القاعدة العريضة التي يبنى عليها⁽⁴⁾.
ولعل هذا الاعتبار أحد أسباب وضعها في مفتتح المصحف؛ إذ هذا شأن الأصول والأمهات والأوائل
والبدائيات.

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية في السورة:

موضوعات هذه السورة المباركة كثيرة ومتنوعة؛ وذلك لتنوع حاجات المجتمع الجديد الذي نزلت فيه، وقد
تبدو للنظر الساهي أمشاجاً وأخطا لا ينظمها سلك ناظم، ولا يجمعها سور جامع، لكن المتأمل والمتدبر يرى
الوحدة الموضوعية للسورة، والترابط بين موضوعاتها أمراً ظاهراً.
ولعل أول ذلك ارتباط افتتاحية السورة بموضوعاتها؛ فمثلاً نفي الريب عن القرآن الذي افتتحت به أوصافه،
تكرر في الآية (23): ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ [البقرة: 23]. ولما ذكرت أركان الإيمان مجملة
في بداية السورة: ﴿الذين يؤمنون بالغيب...والذين يؤمنون بما أنزل إليك...وبالآخرة هم يوقنون﴾ [البقرة: 3-4]
جاء تفصيلها في ختامها في قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله﴾ [البقرة: 284].

ومن صور الوحدة الموضوعية في السورة التناسق بين موضوعاتها، والتشابه بين آياتها، فمن صور التناسق
بين موضوعاتها التناسب بين الخلافة والإمامة، خلافة أبي البشر، وإمامة أبي الأنبياء، فكما تلقى أبو البشر
من ربه كلمات فتاب عليه، وجعله خليفته في أرضه، ابتلى أبا الأنبياء بكلمات فأتهمن فجعله إماماً لخلقهم، قال
تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ [البقرة: 36] وقال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ [البقرة: 123] ولعل
هذا يشير إلى محورية قضية الاستخلاف والإمامة المتفرعة عنها في المنظور الإسلامي.

ومن صور الوحدة الموضوعية أيضاً أن الحديث عن بني إسرائيل الذي اصطبغت به السورة استمر مع آياتها
وموضوعاتها تصريحاً أو تلميحاً، عبارة أو إشارة حتى قال في آخرها في قول المؤمنين: ﴿لا نفرق بين أحد
من رسله﴾ [البقرة: 285] تعريضاً باليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض كما قال
تعالى: ﴿...ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ [النساء: 150]، وقد أمر
الله المؤمنين بأن يعلنوا أنهم لا يفرقون بين أنبياء الله قال تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله

وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم... لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: 136].

ومن ذلك أيضاً دعاء الفئة المؤمنة مع طالوت: ﴿...وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله﴾
[البقرة: 250-251] هو نفسه دعاء المؤمنين في آخر السورة: ﴿...أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾
[البقرة: 286]، وفيه بشارة باستجابة دعائهم بنصرهم على الكافرين كما نصر من قبلهم.

ومن تشابه ألفاظ السورة وآياتها قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة: 207]،
وقوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة: 265]، وكثيراً ما تجمع الأنفس

(5) مسند أحمد برقم: (22146).

(6) مسند أحمد برقم: (2871).

(7) مسند أحمد برقم: (22213).

(1) نظرية الوحدة الموضوعية من خلال كتاب "الأساس في التفسير" للشيخ سعيد حوى، أحمد بن محمد الشرقاوى، 102.

والأموال في سياق الجهاد في سبيل الله، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: 111].

ومن التشابه أيضا حديث السورة عن صنف من الناس يدعي الإيمان والصلاح، وما عمله إلا الفساد والإفساد، قال تعالى في الآية الثامنة وما بعدها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ... وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 8-11]، وقال في موضع آخر في الآية الرابعة بعد المئتين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 204-205]. وجاء بينهما ذكر فريق آخر من الناس صريح كفره، ظاهر نكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165].

ولعل أفضل من كتب في بيان الوحدة الموضوعية للسورة، وارتباط موضوعاتها ببعضها ببعض فأبدع أيما إبداع، وأجاد وأفاد، وأتى بما لم يسبق إليه العلامة المرحوم محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم-نظرات جديدة في القرآن".

وإليك أيها القارئ الكريم درة من درر هذا السفر النفيس، وعلى مثلها فقس إن أردت أن تقيس، قال وهو يتحدث عن ظاهرة الوحدة الموضوعية في سور القرآن عموماً: "إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي -لو تدبرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تتكرر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والاتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً"⁽¹⁾.

وقال في خلاصة مخلصه: "تلك هي سورة البقرة.. رأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحاتها؟ رأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ رأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خلقتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقاً لخط جامع مرسوم، رسمه مربى النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها"⁽²⁾.

المطلب الثالث: الشمولية والتكامل:

أشرنا في المبحث الأول حول الوحدة الموضوعية في سورة البقرة إلى كثرة موضوعات هذه السورة وتنوعها؛ وذلك ليناسب كثرة حاجات هذا المجتمع الفتى، وهذه الفئة الفريدة المتفردة إلى معرفة معالم المنهج الرباني، وتبصر الميزان القرآني لشؤون الحياة والأحياء؛ فقد جاء الحديث فيها عن العقيدة بفروعها وعن التشريع وعن الحدود وعن العلاقات الاجتماعية وقضايا الأسرة، وعن المال وإنفاقه، وعن الربا، وعن الوصية والدين وكتابته، وعن القتال، وعن البيت وبنائه، وتغيير القبلة، وجاء حديث مسهب عن بني إسرائيل عرض فيه صفحات من تاريخهم السيئ، وفضح فيه سرائرهم، وكشف فيه خباياهم.

وهذا التنوع في الموضوعات وهذه الكثرة في الجوانب التي غطتها هذه السورة وهي من أوائل ما نزل بالمدينة توحى بأن مجتمعا جديدا ينشأ، ودولة فتيه تقام، وأمة أخرجت لتكون شاهدة على العالمين، وهذا بلا

(1) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، 153.

(2) المصدر نفسه، 212.

شك يحتاج تشريعا متكاملًا متوازنًا شاملاً لجميع نواحي الحياة العامة والخاصة، تشريعًا يتناسب مع عظم المهمة، وضخامة المسؤولية.

والملمح الدعوي الذي يمكن أن يفهم من هذا أن جهود الإصلاح ينبغي أن تكون شاملة متكاملة متوازنة، وأن على الداعية أن يكون على علم بجذور المشكلات التي يعانيها المجتمع، وأن يكون مدركًا للترابط الشديد والخفي أحيانًا بين الأنظمة المتعلقة بحياة الإنسان، وأن يكون مدركًا كذلك للعلاقة التكاملية بينها، وكيفية تأثير بعضها ببعض، وأن الخلل في نظام من الأنظمة يقلل من كفاءة الأنظمة الأخرى وفعاليتها.

ففي حالات العوز الشديد، والوضع الاقتصادي السيء تنشأ رذائل مثل البخل والشح والرشوة وأكل المال العام، وتضعف مقاومة الناس لإغراءات الفساد والمفسدين، وتزداد كلفة الأمانة والنزاهة والصدق، ويصبح التمسك بالقيم السامية والأخلاق النبيلة بحاجة إلى طاقة روحية كبيرة، ودرجة عالية من الإيمان والتقوى.

وهذا التوجيه أو الإيحاء القرآني ليس موجهاً للأفراد -إذ يتعذر عليهم الاهتمام والعمل في عدة جوانب في آن واحد- بقدر ما هو موجه للجماعات العاملة في حقل الدعوة والإصلاح؛ بأن ينتقلوا من التنافس إلى التعاون والتكامل، وأن يجتمعوا حول الأهداف الكبرى والغايات العظمى، وألا تفرقهم الأهداف الصغيرة، والوسائل المتنوعة.

ومن المؤسف القول إن الواقع بين الحركات الإصلاحية والجماعات الدعوية؛ بل حتى بين الجمعيات الخيرية والمؤسسات التعليمية من التناحر والاختلاف والتنافس مثل ما بين التجار والمؤسسات الاقتصادية.

المقصود أن تنوع الموضوعات التي عالجتها سورة البقرة توحى بتنوع وتعدد نواحي الهداية والإصلاح التي يحتاج المجتمع البشري، وذلك يقتضي تنوعاً في اهتمامات العاملين ومشاربهم وقدراتهم مما يفرض إلى قيام نهضة عامة شاملة، وحضارة تقوم على توجيهات الوحي المبارك، تستلهم منه الترشييد والتسديد، وتستمد من الله العون والتأييد.

المبحث الثاني: الهداية والتكليف بها

المطلب الأول: الهداية مقصود القرآن الأعظم:

نزل القرآن لهدفين أساسيين هما الهداية والإعجاز، والمقصود بالهداية هنا مفهومها العام الشامل لكل المصالح الدينية والدنيوية، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: 9]، ولذا علم الله عباده اللهج بطلب هذه الهداية في فاتحة الكتاب فقال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5]، وطلبها هنا هو طلب حصولها أو الزيادة منها أو الثبات عليها.

ثم جعل أولى خصائص هذا الكتاب وأولى صفاته في أول سورة من أعظم سورته وأطولها هدايته للمتقين فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، ثم ذكر صفاتهم التي استحقوا بها الهدى، ثم ذكر حصولهم عليه وتمكنهم منه فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ [البقرة: 4]، ثم ذكر صفات من لم يهتدوا بالكتاب، وذكر استبدالهم الهداية بالضلالة فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: 15]، فكانت ﴿أُولَئِكَ﴾ هنا في مقابل ﴿أُولَئِكَ﴾ الأولى، ثم ذكر مثلين أحدهما للكافرين والثاني للمنافقين⁽¹⁾.

ولما كانت الهداية أعظم الحاجات البشرية، وأنفس المنح الربانية، كانت أولى التوجيهات السماوية للخلق بعد هبوطهم إلى الأرض قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

(1) ما جرى عليه أغلب المفسرين أن المثلين: مستوفد النار، وأصحاب الصبب للمنافقين، وجعلهما المرحوم دراز الأول للأول والثاني للثاني، ومما استدل به على ذلك التقابل بين ﴿صم بكم عمي﴾ في المثل الأول وبين ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاة﴾، وتقلب الظلام والنور والوقوف والمسير في المثل الثاني مناسب لأحوال المنافقين المتذبذبة. وهو استدلال في غاية الروعة والجمال. ينظر: النبا العظيم، 166. ومما أراه يؤيد هذا النظر الدقيق وهذا المعنى العميق تطابق عجيب في عدد كلمات المثل الأول مع عدد كلمات الممثل له؛ فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِلَى قَوْلِهِ﴾ ولهم عذاب عظيم (23) كلمة، وكذلك العدد نفسه من قوله: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أما المثل الثاني والممثل له وإن لم يتطابق في عدد الكلمات إلا أنها كثيرة فيهما.

ولننظر إلى هذا التخلص العجيب للحديث عن بني إسرائيل؛ إذ هم أبرز من تنكب سبيل الهداية، واستدبر إرشادات الوحي المبارك، قال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: 39-40]، وإذا اعتبرنا الإشارة إليهم في فاتحة الكتاب بقوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ [الفاتحة: 7] فالتصريح بذكرهم هنا يشبه أن يكون من النشر بعد اللف. ولكون الهداية هي مقصود الكتاب الأعظم تكرر لفظها في هذه السورة بمشتقاته: (هدى-يهدي-يهديهم-هداهم-مهتدين...) في مواطن كثيرة بلغت (25) موضعا تقريبا.

والمطالع لبعض كتب التفسير ربما يلاحظ أن ملامح الهداية القرآنية غائبة أو غائمة، بسبب ما طغى على هذه المصنفات من نقاشات علمية، ومماحكات وردود واعتراضات، وخصومات عقلية وفكرية وفقهية ولغوية، وتفسيرات أخرى تحولت إلى شرح للألفاظ وتحليل للتركييب، وتدرجات وتطبيقات لقواعد الفنون، وإن لم تخل هذه وتلك من فوائد كان لها عوائد على تطور العلوم واستوائها على سوقها. بينما ظهرت معاني الهداية والدعوة في بعض التفاسير المتأخرة، لظهور الحاجة إليها كتفسير المنار وتفسير الظلال، فنجد فيها مثلا ما يتعلق بصفات الداعية وخصائص الدعوة، عوائق الدعوة... وغيرها.

المطلب الثاني: الهداية دون الاهتداء:

وإذا كانت الهداية هي مقصود القرآن الأعظم وغايته الكبرى، فالعمل لتحصيلها وإيصال الناس إليها من أوجب الواجبات ومن أكد الفروض، كلف الله بها الأنبياء، وشرف بها أتباعهم، قال تعالى عن الأنبياء في سورتهم: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) [الأنبياء: 72]: وقال عن أتباع موسى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) [السجدة: 24] وقال: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) [الأعراف: 159]، ثم اصطفى لها من عامة خلقه فقال: (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) [الأعراف: 181].

إلا أن من مظاهر القصور البشري والضعف الإنساني محبة رؤية نتائج الأعمال وثمرات الجهود ومظاهر الإنجاز، ولا شك أن هذا من علل النفوس وأدوائها التي كان من خطة القرآن علاجها بالتربية والتزكية. ومحبوب النفوس هذا وإن كان سائغا جانزا في الأعمال الدنيوية؛ لأنه مما يعين على الاستمرار والثبات، إلا أنه بالنسبة للأعمال الشرعية قد يكون قادحا في الإخلاص، مفسدا للثواب، منقضا للأجور.

وقد عالج القرآن هذا الخل بتوجيهاته الرشيدة فحث العامل على الأخذ بالأسباب المشروعة، واحترام سنن الله التي بثها في كونه، وبذل الوسع والطاقة، ولم يكلفه فوق ذلك من ترتب النتائج وحصولها قال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ [التوبة: 105] فقال سيرى عملكم ولم يقل نتائج عملكم. ولا يعني ذلك البتة أن الإنسان ليس مسؤولا عن نتائج أعماله وتصرفاته، فإنه إن قصر في اجتهاده، أو كسل عن جهاد، أو أخطأ في تقدير العواقب؛ فإن حسن نيته وسلامة قصده لا يحميانه من عقاب عاجل أو آجل. ومما ورد في هذا الجانب في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ليس عليك هدام﴾ [البقرة: 272]، وقوله: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ [البقرة: 119] وقوله عن أهل الكتاب: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ [البقرة: 137] ومضمون هذه الآيات مبنوث في طول القرآن عرضه⁽¹⁾.

ولو أمر الله الإنسان ألا يدعو ولا يعمل أي عمل إلا بعد أن يجزم بتحقيق نتائجه، ويوقن بحصول مقصوده لكان ذلك من التكليف بما لا يطاق؛ إذ كثيرا ما يتوقف ذلك على عوامل أخرى ليس في مقدور البشر الإحاطة بها، وإن علموها فلا يملكون لها دفعا ولا لتأثيرها منعا.

فعلى الداعية أن يجمع مع الحرص الشديد على هداية الخلق إلى الحق اليقين بأن تحقق الهداية وحصولها شأن من شؤون علام الغيوب ومالك القلوب سبحانه قال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: 56]، وإنما شأن الداعية شأن العامل والأجير القيام بما طلب منه، وتنفيذ ما أمر به.

(1) من مثل قوله تعالى: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: 22]، و﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ [الشورى: 48]، و﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا﴾ [المائدة: 41].

قال سيد قطب تعليقا على قصة أصحاب الأخدود، وكيف ربَّى الله بها المسلمين الأوائل حيث ذكر لهم نموذجا لم ينتصر فيه المؤمنون، ولم ينتقم الله لهم، قال رحمه الله: "...وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخصهم؛ فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة، وعملوا أجرا عند صاحب الأمر، ورضوا خيرة الله على أي وضع وعلى أي حال" (1).

المبحث الثالث: أسس ومنطلقات

المطلب الأول: الإحاطة بالمحيط:

لا شك أن مما يجب على الداعية معرفته الواقع والبيئة التي يعيش فيها ويعمل من خلالها، معرفة حقيقية تمكنه من التعامل الإيجابي معه، واختيار أنجع الأساليب، وأنفع الوسائل للتأثير فيه، أو على الأقل عدم التأثير به. والداعية كثيرا ما يجد نفسه مجبورا على أوضاع غير ملائمة، وأجواء غير مواتية، ولا يملك مفاتيح تغييرها، ولا تبيح له وظيفته الشريفة، ورسالته السامية نكوصا ولا ترجعا؛ فلا مناص إذا من فهم واقعه لأجل معرفة موقعه، ثم التمتع الصحيح الذي يوجبه العمل المثمر والجهد المفيد.

ونجد في مفتتح هذه السورة العظيمة إشارة إلى توصيف الواقع الجديد الذي انتقلت إليه الدعوة، ووجدت نفسها فيه؛ فجاء في مطلعها التعريف بأصناف الناس حسب مواقفهم من هذا الدين الجديد؛ فذكر الذين آمنوا به، ووصفهم بما وصفهم به من نعوت الإيمان والتصديق والعمل، ثم ما أعقبهم ذلك من الهدى والفلاح، قال تعالى: ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 2-5].

ثم جاء الحديث عن الصنف الثاني المجاهر بالكفر والعداوة، وهم صنف خَبر المؤمنون شأنهم، وذاقوا صنوف أذاهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ [البقرة: 6]، وجدَّ صنف ثالث لعله لخفائه أشد خطرا، وأكثر مكرًا، وهم المنافقون الذين اتخذوا نصيرا وظهيرا من أحبب خلق الله، وأشد الناس عداوة للحق والخير والفضيلة (اليهود)؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [البقرة: 8].

وطائفة اليهود وردت لها في هذا المطلع إشارة صغيرة، ولكنها كافية، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير إلى الكثير من صفاتهم، ومن حقيقة دورهم، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل (2). وكل ما وصف الله به المنافقين في هذه الآيات من خداع، ومرض القلوب، والإفساد في الأرض مع ادعاء الإصلاح، والاستهزاء بأهل الإيمان وازدراءهم كل ذلك - من أخص خصائص اليهود، ومن أبرز خصالهم؛ فهم فيها أساتذة وقادة.

وإذا اعتبرنا هذه الآيات الست عشرة قراءة أولية للواقع الجديد تلقى على أسماع هذه الفئة المؤمنة كيان أول في موطنهم الجديد؛ فإننا نلاحظ فيه أيضا الوضوح والصراحة دون تهوين أو تهويل؛ فذكر المشركين - وهم الأقل خطرا في تلك المرحلة على الأقل - في آيتين، وخص من بعدهم بثلاث عشرة آية.

وهذا قد نلمح فيه إشارة إلى أن تشخيص الواقع ينبغي أن يراعى فيه الحجم الحقيقي للأخطار، وترتيبها حسب درجة تأثيرها؛ لتنظيم ردود الأفعال المناسبة لها. ولا شك أن من أحد أهم أسباب وقوع الهزائم والنكسات الجهل بالواقع، وسوء تقدير العواقب، وعدم الصبر على الدراسة والتحصيل، والاكتفاء بالنظر السطحي السريع، وادعاء الفهم والمعرفة، وهذا من القصور الذي منشأ الغرور، والبشر أكثر المخلوقات ادعاء كما يقولون.

وتنبئس النبي ﷺ من إيمان الكفار في هاتين الآيتين يفهم منه أن على الداعية أن يوفر جهده، وأن لا يضيع طاقته العقلية والروحية في دعوة من ظهر عناده، وقل رشاده.

وتأكيدا لهذا المعنى آيس الله المؤمنين من إيمان اليهود فقال: ﴿أَقْتَضِعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 74]، وبين أنهم لن يكتفوا بعدم الإيمان

(1) معالم في الطريق، سيد قطب، 172.

(2) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، 37/1.

بدينكم؛ بل سيسعون أن تتركوا أنتم دينكم: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [البقرة: 119].

وما إفاضة السورة في الحديث عن بني إسرائيل، وذكر مواقف من تاريخهم، ومعاناة موسى عليه السلام معهم، وتلكؤهم في الاستجابة لأوامر الله تعالى إلا صورة من صور تعريف المؤمنين بواقع جديد لم يألفوه، وبعده لم يجربوه.

المطلب الثاني: حقيقة الصراع:

سورة البقرة باعتبارها من أول ما نزل بالمدينة، جعلت أول سورة في المصحف بعد فاتحة الكتاب، وهذه الأولوية لها دلالتها؛ فالمسلمون بالهجرة بدأوا مرحلة جديدة من الصراع، أو هي البداية الحقيقية للصراع بين الحق والباطل، ومن ثم فلا مناص من إطلاع هذه الفئة المؤمنة على منشأ الصراع وبداياته؛ فجاءت قصة آدم عليه السلام وهي قصة بداية الخليقة، وذكر فيها فصل لم يتكرر ذكره في قصته مع تكررها في حوالى سبع سور؛ ألا وهو جانب تعليم الأسماء الذي سبق الأمر بالسجود؛ فكأنه تعليل له لما فيه من بيان الأفضلية واستحقاق التكريم والتشريف، الذي كان سببا في حسد إبليس وإظهار عداوته لأدم عليه السلام.

ومن هنا بدأ الصراع بين الخير والشر، وقيل للمتصارعين جميعا: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ [البقرة: 36]، وأشارت السورة إلى بداية الخلاف والعداوة بين بني البشر في قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾ [البقرة: 213] وهذا مما يناسب أوليتها، وفيه ذكر الحسد أيضا.

وقد يرد هنا سؤال مفاده: لم بعث الله النبيين إذا كان الناس أمة واحدة على الإيمان كما هو الراجح؟، والجواب: أنه لا بد من اعتبار محذوف في الآية تقديره: (فاختلفوا فبعث ...)، وهو ما صرح به في يونس في قوله تعالى: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ [يونس: 19]، وهو اختلاف بالإيمان والكفر كما جاء مصرحا به في قوله تعالى: ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ [البقرة: 253].

أما لم وقع الاختلاف؟ فإن ذلك مرتبط بمهمة الاستخلاف في الأرض التي تقتضي تنوع الوظائف المفوضي إلى التكامل؛ لكن هذا التنوع مبني على اختلاف الاستعدادات والقدرات والمواهب والاهتمامات، وهو يؤدي من جهة أخرى إلى اختلاف في التصورات والمفاهيم ووجهات النظر⁽¹⁾.

وما كانت عداوة بني إسرائيل للمؤمنين إلا بسبب الحسد الذي أشرنا إليه سابقا، قال تعالى: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ [البقرة: 90] وقال: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم﴾ [البقرة: 109]. وجاء فيما بعد حديث عن القتال وبعض أحكامه، وقصة طالوت وجالوت، وتدافع الناس لمنع الفساد في الأرض.

وفي سياق الصراع العام بين بني البشر يمكن أن نفهم ما ورد في السورة من قضايا الأسرة كالإيلاء والطلاق والخلع، وهي صور من النزاع الذي وضعت السورة له حدودا وضوابط تمنع البغي والعدوان؛ وقد تكررت كلمة ﴿حدود الله﴾ في آيتين اثنتين من آيات الطلاق ست مرات، وهو يقع - غالبا - بعد معارك وخصومات، تحترق فيها المشاعر النبيلة، وينسى فيها الفضل الجميل، وإذا وقع لأمر ما فلا بد من إزالة غصته وكسر حدته بعطية حسنة، تطفئ نار الغضب، وتمنع الفجور في الخصومة⁽²⁾.

وميادين الصراع كثيرة والأسلحة فيها متنوعة؛ فإذا كانت بعض صورته تحسم بالسيف والسنان، وبعضها بالتشريعات والقوانين والحدود، فإن ثمة نوعا آخر من الصراع ميدانه الفكر والعقل، وسلاحه الحجة والبرهان والدليل والمنطق، وقد أشارت إليه السورة الكريمة في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وتجلت فيه قوة الحق، ونصاعة الحقيقة، وانحسار الباطل وفساد منطقته ﴿فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [البقرة: 258].

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، 215/1.

(2) ينظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، 22. بتصرف يسير.

ونوع آخر من الصراع خفي في السورة لخفاء ميدانه، إنه صراع داخل النفس الإنسانية، داخل الشعور والقلب والوجدان، صراع الفضائل والردائل، صراع بين الأثرة والإيثار، بين الشح والسخاء، نجد ذلك في قضية إنفاق المال في سبيل الله، وفي إنظار المعسر أو التصديق عليه، في ترك ما بقي من الربا، وفي عفو الزوجة غير المدخول بها عن حقها في نصف الصداق، أو عفو زوجها بإعطائها كامل صداقها، أو في إمتاع المطلقات حقا على المتقين أو المحسنين، هذا في جانب المال. ونجد إنفاقا من نوع آخر تشير إليه السورة وتحت عليه كما في العفو بترك المطالبة بالحقوق الأخرى كالعفو عن القاتل في القصاص: ﴿فمن عفى له من أخيه شيء﴾ [البقرة: 178]، وقد جعل العفو من الإنفاق في قوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ [البقرة: 219]، وإن كان المقصود الزيادة، وليس العفو الذي نحن بصدده الآن؛ وكالمسامحة والتجاوز للذين بهما تستمر العشرة، وتستقر الحياة، والإحسان الذي به تختم العلاقة إذا استحال الوفاق؛ فيغني الله كلا من سعته.

وما ذكر خطيئة آدم عليه السلام في هذه السورة إلا بيان لحقيقة مهمة، ألا وهي حقيقة الضعف البشري الذي يعتري هذا المخلوق بسبب ما ركب فيه من شهوات، وما جُبلت عليه طبيعته من نقص وقصور. كل ما سبق يلقي في رُوع المؤمن والداعية على الخصوص أنه في جهاد متواصل، وفي ميادين وجبهات كثيرة، ولا يمكن أن يلقي أسلحته ولا أيا منها ما دامت روحه في جسده.

وعناية السورة عموما بالجانب الاجتماعي من قضايا الأسرة، والعقوبات، والمعاملات المالية... وغيرها، بعد أن قضى حق الكلام عن أهل الكتاب وعن بني إسرائيل خاصة إشارة ربما إلى أن النصر على العدو الخارجي لا يتم إذا كان المجتمع يعاني من خلل في العلاقات بين أفرادها، فينتشر فيه الظلم والتعدي، وأكل حقوق الضعفاء، وتضطرب فيه الموازين التي تقاس بها الفضائل والردائل.

المطلب الثالث: حقيقة الابتلاء والصبر عليه:

خلقت الدنيا للابتلاء وذلك واضح في قول الله تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [المالك: 2]، وتكررت الإشارة إلى هذه الحقيقة في عدة سور، ومنها سورة البقرة كما في قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ [البقرة: 155]، ولعل البداية بالخوف إشارة إلى الابتلاء الذي يكون بسبب العداوة لهذا الدين وأهله.

وهذه اللام الموطئة للقسم في هذه السورة، وفي أختها آل عمران: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ [آل عمران: 186]، لتأكيد حقيقة وقوع الابتلاء مستقبلا، ونون التوكيد الثقيلة، إشارة إلى ثقله وتنوعه وتعددته، وجاء في البقرة أيضا: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ [البقرة: 249].

كما جاءت الإشادة بفضيلة الصبر التي هي السلاح الذي يواجه به الابتلاء، حتى ارتبط كلاهما بالآخر، وفي حديث معاذ بن جبل-رضي الله عنه- قال: مر النبي ﷺ برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك الصبر. فقال: " قد سألت البلاء فسل الله العافية" (1).

والإشادة بفضيلة الصبر في السورة جاءت بتخصيصها بالنصب بين مرفوعات في آية البر الجامعة، قال تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب... والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين﴾ [البقرة: 177]، بما يسمى في العربية بالنصب على الاختصاص أو على المدح، وجاء الأمر بالاستعانة بالصبر في موضعين [153، 45] والإخبار بمعية الله للصابرين في موضعين [153، 149]، وخامسة جاءت ببشارة مطلقة للصابرين [155]، مما يوحي بخير عظيم جلّ عن أن يُعدَّ أو يُحدَّ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: 10].

وإنما جاء تأكيد وقوع الابتلاء في القرآن المدني لدفع توهم أن ذلك قد زال بزوال العهد المكي وهو عهد الاستضعاف والهوان؛ ولتجدد أنواع أخرى من الابتلاءات؛ فسورة البقرة حفلت بتكاليف جديدة، وتشريعات

(1) مسند أحمد، حديث رقم: (22017).

وأحكام تحتاج إلى مجاهدة واحتمال ومصابرة، وعلى رأسها الصوم الذي هو عبادة تقوم أساسا على الصبر، وقد سمي شهر رمضان في الحديث "شهر الصبر"⁽¹⁾.

وكذلك لما يحصل للمؤمنين من منح وعطايا ونعم كالنصر والغلبة ووفرة المال، وكلها خيرات يختبر بها المؤمن كما يختبر بضدها، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:35]، وقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ...﴾ [الفجر:15]، وقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم:17]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف:168]؛ بل إن الصبر على البطر بالنعمة عند الظفر بها أشد من الجزع عند فقدها.

قال الراغب الأصفهاني: "والقيام بحقوق الصبر أيسر من حقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر. ولهذا قال علي-كرم الله وجهه-: من وسَّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِّر به، فهو مخدوع في عقله"⁽²⁾.

قال سيد قطب-رحمه الله-وهو يعدد أنواع الصبر: "الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامعها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملالها... والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرتهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة،... والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثبire في النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيط، والحنق، والضيق،... والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع..."⁽³⁾.

المطلب الرابع: من سنن النصر والتمكين:

مما يتعلق بالمبحث السابق وهو الابتلاء أن الله تعالى جعل لهذا الكون سننا ونواميس وقوانين يسير عليها ويخضع لها، لا يملك أحد منها انفلاتا ولا انفكاكا، منها أن من سننه في النصر والتمكين أنه لا يناله إلا الصفوة المختارة من عباد الله، ولا يحصل إلا بعد التمهيص الشديد، الذي لا يبقى معه شيء من حظوظ النفس، ولا يحصل كذلك إلا في الوقت الذي أراده، وبالكيفية التي قدرها.

ومن أبرز الآيات التي أشارت إلى هذه المعاني في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214]، ونفهم أن هذا من السنن من قوله: ﴿خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ونفهم تنوع المعاناة من قوله: ﴿الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾، ونفهم شدة المعاناة من قوله: ﴿وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ...﴾. وللقارئ الكريم أن يستحضر هذه الحالة التي تصورها هذه الآية، هذه الدرجة من البلاء والشدة التي يستبطن عندها الرسول المؤيد بالوحي والمعجزات النصر، ويستأخر مجيئه، ولعله يرجع بالتشكيك في طريقته في إدارة المعركة، أو في صدق نوايا أتباعه، أو في أخذه بالأسباب المشروعة، واحترامه للنواميس الموضوعية، إلى أن يصل به إلى اليأس أو ما يقاربه، وقد صرحت آية يوسف بحالة أشد، ووقنت مجيء النصر، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:110]، بل جعلت آية سورة محمد ﷺ علة تأخير النصر الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:4].

(2) مسند أحمد، حديث رقم: (7577).

(1) مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، 145.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/551-552 يتصرف بسير.

ويتبين من هاته الآيات أن نصر الله لا يأتي إلا في أشد حالات الخطر والضييق، وعندما تنقطع الأسباب، وتسد الأبواب، ولا يبقى إلا الغوث من رب الأرباب، وفي هذا درس بليغ لأصحاب الدعوات، أن يحترموا سنن الله، ويخضعوا لنواميسه، ويراعوا حكمته سبحانه.

فكثير من الناس يريدون النصر من الجولة الأولى مع اللكمة الأولى، ويغفلون عن أن الله غالبا ما يجعله في الجولة الأخيرة مع آخر رمق⁽¹⁾، وقد قال ابن عطاء الله رحمه الله: "ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه"⁽²⁾.

وليس أضر على الدعوات والأفكار والمشاريع من عجلة تقطف الثمرة قبل بدو صلاحها، وتستخلص النتائج قبل استكمال مقدماتها، ولو لم تتلق الفئة المؤمنة الأولى تربية نبوية رشيدة لما تخلصت من هذه الآفات، ولما فتحت أرضا ولا نشرت ديناً، روى البخاري عن خباب بن الارت قال: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"⁽³⁾.

"والحق دائماً ظافر منصور، ولكنه يفتن بنار التمحيص ليميز الله الخبيث من الطيب، فتستبطن النفوس العجالة بالجبل البشرية انحسام الأمر بنزول النصر فيتساءلون وتجيّب الهداية القرآنية ببيان سنة الله مع أهل الإيمان"⁽⁴⁾. ووعده الله بالنصر والتمكين لا يتخلف، ولكنه لا يتحقق أبداً على أيدي أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سننه، ولا يضحون من أجله⁽⁵⁾.

فعلى الدعاة والمشتغلين بالإصلاح أن يدركوا أنه لا بد للجماهير من قادة وحكماء يكفكون من حماسها، ويضبطون إيقاع سيرها، ويصبرونها على وعاء الطريق، وعناء الكدح، ومشقة الانتظار.

ومما يتعلق بهذا الموضوع ما أشارت إليه السورة في قصة طالوت من أن النصر لا يرتبط بالكم أي العدد أو الكثرة ولا بالقوة المادية- وإن كان كل ذلك مطلوباً- بقدر ما يرتبط بالنوع أي بالقوة الروحية والمعنوية المستمدة من اعتقاد صحيح، ويقين بقاء الله: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾ [البقرة: 249].

وعليه فلا مناص مع إعداد القوة المادية والأخذ بالأسباب من إعداد من نوع آخر، إعداد تربوي فكري عقدي لفئة مؤمنة تتحمل تكاليف النصر، وتتقبل أعباء الجسام، وتتأهل بعد ذلك لنيل محبوب النفوس من نصر الله وتأييده: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف: 13].

المبحث الرابع: أساليب ووسائل

المطلب الأول: الحجة والبرهان:

من القواعد المقررة أن ما يُثبت بلا دليل ينفي بلا دليل، ووفقاً لذلك فالقرآن الكريم يؤسس لاحترام العقل، وحرية الفكر، والخضوع للحجة والبرهان، فلا يقدم قضية بلا بينة، ولا يطلب التسليم بلا دليل، ولذلك أجرى المعجزات بين يدي الأنبياء، علامة على صدق نبوتهم، وإثباتاً لأقوامهم أنه مرسلون من لدنه سبحانه، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد: 25]، وورد على لسان الأنبياء- عليهم السلام- خطاباً لأقوامهم: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ [الأعراف: 73]، وقال ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر..."⁽⁶⁾.

(1) ينظر: البلاء الشديد، والميلاد الجديد، فايز الكندري، 42.

(2) الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد البوطي، 253/1.

(3) البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم: (3612).

(4) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، 87.

(5) ينظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، 275.

(6) البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، حديث رقم: (4981).

وقد وردت مطالبة المكذابين والمنكرين بالبرهان في القرآن الكريم أربع مرات، واحدة منها في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، وقال للمشككين في إنزال القرآن: ﴿وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

ولعل من الاهتمام بالاستدلال والبرهنة أيضا تحليل كثير من التكاليف والأوامر الشرعية، وتذيلها بما يبين فوائدها وعوائدها؛ لأن من شأن ذلك إعانة المكلف على الامتثال لها والانقياد لتعاليمها، والتحليل عموما هو خطاب لجزء العقل والنظر والتفكر في الكيان الإنساني، وهو غير الخطاب الوجداني العاطفي.

ومن أمثلة ذلك الأمر بالتقوى الذي تتكرر في هذه السورة صراحة بلفظ: ﴿اتقوا الله﴾ تسع مرات، وورد الحث عليها بصيغ وأساليب متنوعة كالنص على معية الله للمتقين، وقصر حصول هداية الكتاب للمتصفين بها، وحصول الموعدة لهم، ورفع الإثم عن اتقى...إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية⁽¹⁾.

ومن أمثلة الأوامر التي قرنت بالتعليل في هذه السورة الأمر بإشهاد امرتين مع الرجل، قال تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ [البقرة: 282]، أي لئلا تضل إحداهما فيتسبب عن ذلك تذكير الأخرى لها⁽²⁾.

والتعليل في القرآن عموماً أكثر من أن يحصى، قال ابن القيم: "والقرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة نحو مئة موضع أو مئتين، لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة"⁽³⁾.

(1) وردت في سورة الطلاق ثلاث آيات متتالية عن ثمار التقوى وآثارها: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 5].

(3) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، 2/ 913.

المطلب الثاني: الإنصاف والموضوعية:

ومن الملامح الدعوية في السورة- وإن كان ذلك خطأ بارزا في الكتاب كله- الإنصاف والموضوعية، وهما خُلقتان عزيزان خاصة في أجواء العداوة والخصام، والموضوعية كما قيل هي الإخلاص للحقيقة، فنلاحظ أن القرآن الكريم لا يصدر أحكاما عامة على المخالفين، وإنما كثيرا ما يستثني منهم طائفة أو فريقا، خذ مثلا قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ [البقرة: 109]، وقوله: ﴿وإن فريقا منهم ليكتمون الحق﴾ [البقرة: 146]، وقوله: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ [البقرة: 100]، والآيات من هذا النوع كثيرة، وربما كانت في غير هذه السورة أوضح؛ فمنها في أختها آل عمران: ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ [آل عمران: 75]، وقوله ﷺ: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ [آل عمران: 113].

وفي المقابل فإن حديث القرآن مع المؤمنين فيه كثير من اللوم والعتاب القاسي أحيانا، وذكر الحقائق الواقعية المرة، ولم يكن كله مدحا وثناء وإطراء، من ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿يأأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى﴾ [البقرة: 264]، وقوله: ﴿يأأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ [البقرة: 267] فهذه الآيات تثبت أن في المؤمنين من يفعل ذلك، فقد كان هناك من يضمن بماله فلا يعطيه إلا بالربا، ومن ينفقه كارها أو مرائيا، ومن يتبع النفقة باليمن والأذى، وكان هناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد.. وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين في سبيل الله مخلصين له⁽¹⁾.

ومن شأن هذه التوجيهات أن تغرس في وعي المؤمن وحسه، احترام الحقيقة، والاعتراف بفضائل المخالفين، والاعتراف كذلك بالقصور والضعف في صفوف الجماعة المسلمة، فالقرآن يعالج حالات واقعة في الحياة، ويرينا حقيقة الجماعات البشرية كما هي بلا غلو ولا مبالغة ولا هالات ولا تصورات مجنحة! وكذلك يدفع اليأس عن نفوسنا حين نرى أننا لم نصل إلى تلك الأفاق التي يرسمها الإسلام، ويدعو الناس إلى بلوغها⁽²⁾.

وما يشير إليه سيد قطب في الكلام السابق هو أن على الداعية أن يكون واقعا في دعوته وفي توقعاته، ولا يغرق في التفاؤل والأمان؛ فالآيات السابقة توحى بأن الجماعة المسلمة الأولى لم تكن كلها على قلب رجل واحد؛ فلم يكن إيمان كل الصحابة كإيمان أبي بكر وعمر مثلا، هذا هو الواقع الذي لا ينبغي تجاهله.

ومن شأن هذه المعرفة بهذه القضية أن تعين الداعية في تخطيطه الاستراتيجي، وفي وضع برامجه، وترتيب أنشطته الدعوية، وتقدير العقبات والعوائق تقديرا صحيحا، مما يكون له أكبر الأثر في نجاحه واستمراره.

وفي القرآن الكريم كثير من آيات العتاب واللوم التي توحى بما نقول ففي سورة الأنفال مثلا يقول تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ [الأنفال: 5] فقد كان هناك من يجادل في الحق بعد تبينه وهو من المؤمنين بنص الآية، وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ [آل عمران: 152] فكان هناك من يريد الدنيا حتى قال ابن مسعود ﷺ: ما كنت أرى أحدا من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية يوم أحد⁽³⁾.

فالمثالية المبالغ فيها التي تكونت في وعينا عن العصر الذهبي للإسلام، بسبب إطناب المؤرخين وكُتّاب الطبقات في ذكر المناقب والمحاسن توحى باستحالة تكرار ذلك النموذج الفريد، وتلك التجربة الرائعة، وقد أساءوا من حيث أرادوا الإحسان⁽⁴⁾.

وكثيرا ما تولد الأفكار والخطط والنظريات في عالم الخيال، وعندما يراد تطبيقها تصطدم بصخرة الواقع، وتتغير كثير من الحسابات، ويتبين خطأ كثير من التخمينات والتوقعات، وتوآد تلك الأفكار في مهدها بسبب الحماس والاندفاع والارتجال والعجلة التي تصطبغ بها كثير من الأعمال فيكون مصيرها التوقف والانقطاع.

(1) ينظر: في ظلال القرآن، 304/1.

(2) ينظر: في ظلال القرآن، 305/1.

(1) فتح الباري، ابن حجر، 348/7.

(2) ينظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، 23.

والقرآن الكريم يعلم أتباعه الذين يقتفون أثره ويترسمون طريقه أن يراعوا طبائع الأشياء، وسنن الله التي بثها في كونه.

وقد يكون من صور الموضوعية في هذه السورة ذكر منافع الخمر في سياق التنفير منها والنهي عنها والتمهيد لتحريمها، قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ [البقرة: 219]، وذكرها بصيغة الجمع الدالة على الكثرة والتنوع.

وقد تجلت صور الموضوعية والإنصاف في سيرة النبي ﷺ، وسيرة الصفوة من أتباعه رضي الله عنهم جميعاً.

المطلب الثالث: التذكير بالنعمة:

ومن الملامح الدعوية البارزة التي تظهر في سورة البقرة التذكير بالنعمة كوسيلة من وسائل التأثير في المخاطبين؛ ذلك أن من شأن أصحاب الفطر السليمة، والنفوس الشريفة الاعتراف بالجميل لمن أسداه، والإقرار بالفضل من أولاه؛ فجاء في بدايتها تذكير الخلق جميعاً بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، قال تعالى: ﴿يأأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: 21-22] ثم كرر ذلك في قوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ [البقرة: 28]، ثم قال مذكرا بنعمة الإمداد أيضا: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: 29]، وافتتح الحديث مع بني إسرائيل بتذكيرهم بنعمة عليهم فقال: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ [البقرة: 40]، وتكرر التذكير نفسه في الآية (47) والآية (122).

وبين هذه الآيات جاء تذكيرهم باستحضار مشاهد تفصيلية من نعم الله عليهم ﴿وإذ نجيناكم-وإذ فرقنا- وإذ واعدنا- وإذ آتيناه-وإذ قلتم-وإذ قلنا- وإذ استسقى-...﴾، أي اذكروا ذلك. وجاء تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم بين يدي الأوامر والتكاليف، قال تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ [البقرة: 198]، وقال: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [البقرة: 231]، وفي الأمر بالإنفاق يشير إلى أصل نعمة المال فيقول: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [البقرة: 2]، ويقول: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ [البقرة: 267]، وهذا كما جاء في سور أخرى: ﴿وأتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ [النور: 34] و﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد: 7].

والتذكير بنعم الله على المدعو يقتضي من الداعية معرفة تامة بتاريخ ذلك المدعو، والاطلاع على طرف من تفاصيل حياته العامة والخاصة، فإن ذلك يشعره بنوع من الاهتمام يدعوه إلى مقابلة ذلك باهتمام مثله. ويفهم مما سبق ضرورة دراسة التاريخ، وتوظيفه في الجهود الدعوية والتربوية، وقد كان ﷺ عالما بتاريخ قومه، عارفا بتفاصيل دياناتهم، روى أحمد في مسنده قصة إسلام عدي بن حاتم وفيها قوله: "... فقال لي-أي رسول الله ﷺ: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم. قال: قلت: إني من أهل دين. ... قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، أأست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك" (1).

ولا شك أن الدعوة بالداخل والخارج تدفع ضريبة جهل القائمين عليها بالتاريخ، وزهدهم في التزود من تجاربه الغنية، وعبره الثرية.

المطلب الرابع: توظيف القصص في الدعوة:

يعد القصص في القرآن الكريم محورا مهما من محاوره، وأسلوبا من أبرز الأساليب التي صيغت فيها هداياته وتوجيهاته، فقد شغل جزءا كبيرا من آياته، وذلك لقوة تأثيره، وسرعة وصول الرسائل من خلاله إلى العقول

(1) مسند أحمد، حديث رقم: (18260).

والقلوب، وكذلك لإمكانية حفظه ونقله وروايته، ومن هنا كان لزاماً أن يلفت نظر القاري المتدبر، ويأخذ بلب التالي والمفسر.

ويعد القصص كذلك زادا للدعاة والمصلحين بما يمثله من عرض لتجارب السابقين مع أقوامهم لتكون رصيда من الخبرة التي تمكّن العامل من أداء مهمته على أحسن وجه، وفي هذا السياق أشار سيد قطب -رحمه الله- إلى أن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى.. وإنما هو دستور شامل للتربية وللحياة العملية كلها، ولذا نراه تضمن عرض تجارب البشرية على الجماعة المسلمة، وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض من لدن آدم عليه السلام، وقدمها للأمة زاداً ضخماً ورصيداً متنوعاً لتكون على بينة من طريقها⁽¹⁾.

ولعل من أسباب استعمال القرآن للأسلوب القصصي أن الأوامر والنواهي النظرية المجردة تتيح للمأمورين فرصة التنصل منها بدعوى أن الالتزام بها ليست في مقدور الإنسان وطاقته، لما فيها من قيود وحد من الحرية الخاصة والعامة، ولم يشأ المولى ﷻ أن يدع الناس حيارى مع هذه النظريات فعرض أمامهم الصور العملية الحية، وأوضح لهم نتائج التقيد بهذه الأوامر، وعاقبة المخالفة والعصيان⁽²⁾.

قال الشيخ زروق -رحمه الله- في قواعد التصوف: "التأثير بالأخبار عن الوقائع أتم لسماعها من التأثير بغيرها، فمن ثم قيل: الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين. قيل: فهل تجد لذلك شاهداً من كتاب الله؟ قال: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ [هود: 120]، ووجه ذلك: أن شاهد الحقيقة بالفعل أظهر وأقوى في الانفعال من شاهدها بالوعي، إذ مادة الفاعل مستمرة في الفعل لغابر الدهر"⁽³⁾. وقد لام -سبحانه- الغافلين عن هذا التاريخ المعرضين عما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المجرمين والمفسدين قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 128].

وعليه فمن أراد التأثير في الناس، واستمالة قلوبهم إلى الحق والخير، فليترسم طريقة القرآن، ولينهج سبيله في اختيار الخبر الصادق، المبني على الواقع الحقيقي الخالي من المبالغة، والبعيد عن الإغراب والخيال. وليترسم طريقه ثانياً في عرض القصص؛ فلا يروي منها إلا ما يحقق الغرض، ويفي بالمقصود، دون ذكر ما يُعلم ضرورة وقوعه من التفاصيل، وليبتعد كذلك عن السرد التاريخي المجرد الخالي من التعليق والتعقيب على مواطن العبرة والموعظة.

وقد حفلت سورة البقرة بعدد من القصص بداية من قصة آدم عليه السلام، وقصة بقرة بني إسرائيل، وطالوت وجالوت، وصاحب القرية، وقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود، ومع الطيور الأربعة... وغيرها. وهذه الخصائص التي سبق ذكرها وغيرها ظاهرة في القصص القرآني عموماً؛ فمثلاً في قصة البقرة لم يذكر القرآن زمن القصة ولا مكانها، ولم يلتزم حتى بذكر وقائعها حسب ترتيب وقوعها؛ فذكر الأمر بذبح البقرة أولاً، ثم ذكر أخيراً سبب ذلك فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72]؛ إذ المقصود بيان تلوؤ بني إسرائيل في الخضوع للأوامر الإلهية تحذيراً للمسلمين من أن يحذوا حذوهم أو يتبعوا سبيلهم، ولعل هذا سر تسمية هذه السورة المليئة بالتشريعات والأحكام بهذه القصة العجيبة⁽⁴⁾.

وقد صرح القرآن في هذه السورة بالتحذير من التشبه ببني إسرائيل فقال: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 108] ولذا جاء قصصهم فيها بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء؛ فقد علم المولى ﷻ بعلمه المحيط بما كان وما يكون أن أجيالاً من هذه الأمة ستمر بأدوار كالأدوار التي مرت بها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقفهم فعرض عليها مزلق الطريق وعقباته، مصورة في

(1) ينظر: في ظلال القرآن 1/ 261.

(2) ينظر: أثر القصص القرآني في غرس العقيدة من خلال قصة إبراهيم، صباح بنت نور مياه، 20.

(3) قواعد التصوف، الشيخ زروق، 123.

(1) ينظر: أنواع التصنيف المتعلقة بالقرآن الكريم، مساعد الطيار، 114.

تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة وتذكرة، ولتري صورتها في هذه المرأة المرفوعة لها بيد الله- سبحانه- قبل الوقوع في تلك المزالق وتلك العقبات والمخاطر⁽¹⁾.

الخاتمة

يمكن إجمال نتائج البحث في الأسطر التالية:

- تحوي سورة البقرة إحياءات دعوية ورسائل تربوية يمكن استنباطها من بين سطورها وآياتها، وتعد زادا زائدا للدعاة والمصلحين والمربين، ومصدرا ثريا للمعرفة والحكمة.
 - تعد الهداية بمفهومها الشامل من أعظم مقاصد القرآن، ومن أنفع ما يمكن أن يستفاد من وراء الجهد التفسيري العظيم الذي بذله جلة من كبار المفسرين.
 - المعرفة الجيدة والدقيقة بالواقع من أهم أسس النجاح، ومن أبرز خطوات التخطيط السليم.
 - يعد أسلوب القصص من أهم أساليب التأثير والتغيير، وقد وظفه القرآن في إثبات العقائد وغرس القيم، والحث على التحلي بالفضائل.
 - يتسم المنهج القرآني في الإصلاح بالشمولية والتكامل، والموضوعية والتوازن، ومراعاة السنن والنواميس التي تحكم حركة الحياة والأحياء.
 - تذكير الناس بفضائل الله ومنه ونعمه التي أنعم بها عليهم من أنفع ما يلين القلوب القاسية، ويحرك العقول الكاسلة، ويثيرها نحو الإقرار والاعتراف والشكر.
 - إن تفسير في ظلال القرآن يعد من أفضل ما أنتجه العقل المسلم المستنير بهداية القرآن، المستضيء بنوره، ويمثل بحق نموذجا فريدا في استنباط المعاني والأفكار الدعوية التي لم ينتبه لها كثير من المفسرين.
 - لا يزال في سورة البقرة الكثير من الإشارات والتلميحات الدعوية والتربوية كقضية التدرج في الدعوة والتشريع، والتربية بالبدايل، والمزاوجة بين الترغيب والترهيب... وغيرها
- والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1. أثر القصص القرآني في غرس العقيدة من خلال قصة إبراهيم، صباح بنت نور مياه، كلية العلوم الإسلامية - قسم القرآن الكريم وعلومه- ط: 1436 هـ - 2015م.
- 2. أسلوب التعليل في اللغة العربية، أحمد خضير عباس، بدون بيانات.
- 3. البلاء الشديد، والميلاد الجديد، فايز الكندري، مركز طروس للنشر والتوزيع، الكويت، ط: 3، 1442 هـ - 2021م.
- 4. تفسير الراغب الأصفهاني، الأصفهاني، تح: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب- جامعة طنطا، ط: 1، 1420 هـ - 1999م.
- 5. الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد البوطي، دار الفكر، ط: 3، 1428 هـ، 2007م.
- 6. صحيح البخاري، البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، 1422 هـ.

(2) ينظر: في ظلال القرآن، 261/1.

7. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ.
8. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق- بيروت- القاهرة، ط: 17- 1412هـ.
9. القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، مكتبة الكليات الأزهرية، 1386هـ-1966م.
10. قواعد التصوف، الشيخ زروق، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، ط: 2، 1429هـ، 2005م.
11. مسند أحمد، الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1421 هـ - 2001م.
12. معالم في الطريق، سيد قطب، بدون بيانات.
13. مفتاح دار السعادة، ابن القيم، تح: عبد الرحمن حسن قائد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع مكة المكرمة، ط: 1، 1432هـ.
14. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: 1 - 1412هـ.
15. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق.
16. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: 1426هـ - 2005م.
17. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، ط: 3، 1417هـ-1997م.